تحت الضوء

سقط نظام وانهارت دولة

حسين محمد عجيل

كثيرا ما نقرأ ونسمع في وسائل الإعلام عبارات تصف ما حدث بالبلاد بعد واقعة الاحتلال في نيسان ٢٠٠٣ من تدمير للبنى التحتية وتخريب للمؤسسات الثقافية وسرقة للمال العام.. بأن كل ذلك ناتج عن سقوط النظام، وهي عبارة تبدو مضللة، وقد تفسر بأكثر من طريقة، بحيث يستخدمها أولئك الذين مازالوا مرتبطين بالنظام الإجرامي من العناصر الطفيلية، التي كانت تعتاش على بقائه واستمرار وجوده، على أن كل شيء كان على ما يرام حتى سقط النظام، فالمتاحف والمكتبات ومؤسسات الدولة وأبنيتها والمخازن.. الخ كانت محفوظة كلها بعناية حتى سقط صدام وقبيله فتناهبتها الأيدي، ويسوقون هذه الفكرة ويروجون لها في الأوساط كافة، تساعدهم في ذلك فوضى إعلامية شملت كل وسائل الإعلام السمعية والمرئية والمقروءة التي تكرر على الدوام هذه المقولة المغلوطة وأمثالها بتنويعات مختلفة، على نحو يوحي بصدقية تفسيرها هذا، حتى باتت كأنها بديهية من البديهيات ومسلمة لا تقبل النقاش.

وحقيقة الأمر، كما يعلم الكثيرون، مخالفة تماما لهذا التوصيف؛ فالنظام الساقط لم يكن يهمه سوى استمرار وجوده حتى لو تم ذلك على حساب موت الدولة نفسها، وهو ما حدث بالفعل في ٩ نيسان ٢٠٠٣ بعد أن عمل على تغييب الدولة بمفهومها القانوني عبر برنامج طويل الأمد وصودرت لصالح مفهوم ضيق هو النظام الدكتاتوري، وكان من نتيجة ذلك غياب فكرة الدولة لصالح فكرة تضخم نظام دكتاتوري فردي ضيق الأفق. وما حدث في ٩/ ٤/ ٢٠٠٣ كان سقوطاً فعلياً متأخراً لنظام لا يستحق البقاء وفقد كل مبررات وجوده قبل أكثر من ربع قرن مضت في الأقل، وتزامن مع هذا السقوط كل انهيار بنى الدولة التي استعبدها النظام لخدمته وجعل كل الذوات المعنوية والطبيعية في أجهزتها مسخرين لخدمته، من حيث يشعرون أو لا يشعرون، وربط كل عملية اتخاذ قرار في أي مفصل من مفاصلها به شخصيا عبر شبكة معقدة من الأجهزة، وبانهياره المتأخر وبغياب أية نزعة للمبادرة، كان قد برمج على وأدها منذ فترة طويلة، انهارت الدولة فأصبح المال العام مشاعا لكل يد.

بقايا الصداميين هؤلاء استغلوا هذا الخلط بين مفهوم الدولة ومفهوم النظام (ولا نسميه الحكومة) حتى نجحوا في اقناع البعض من المواطنين بأن كل ما حدث ويحدث من أزمات وفوضى تسببوا هم (أعني الصداميين) بها، سببها غياب السلطة الصدامية التي كانت - بزعمهم - توفر الأمن في البلاد. وتغذي هذا التأويل عملياتهم الإرهابية المتواصلة في كل أنحاء البلاد التي تستهدف حياة المواطنين الأبرياء والبنى الارتكازية للدولة من مصاف ومنظومات كهرباء وأنابيب نقل النفط الخام، كلفت الميزانية العامة نحو ثمانية مليارات دولار حتى الآن، قبل أن تستهدف قوات الاحتلال التي يزعمون مناهضتها.

المطلوب إذاً إزالة هذا اللبس أولا وإيضاح الحقائق على نحو علمي قانوني منطقي، وتفنيد مثل هذا الربط الساذج الذي قد ينطلي على قلة من المواطنين الذين أنهكتهم الأزمات اليومية والعمليات الإرهابية والضباب الذي يغطي أفق المستقبل ثانياً، والعمل على حل كل الأزمات التي تعصف بحياة الناس وتوضيح الحقائق بشفافية بعيدا عن التبريرات ثالثاً؛ فكل خطأ حكومي ناتج عن اللامبالاة يحصده الصداميون والإرهابيون لصالحهم.

إذا أرادت الحكومة أن تُنجح خطواتها نحو استرداد الأمن لإقامة الانتخابات العامة المنتظرة، وهو الهدف الذي من أجله أنشئت أصلا.. فعليها أن تعلم أن محيطها الحيوي هو جمهرة المواطنين، ولن تحقق شيئا من هدفها وما يتلوه من أهداف أخرى ستراتيجية تسفر عنها هذه العملية، ما لم يعتقد هؤلاء المواطنون أنها تقف فعلا، لا قولا، معهم في كل شؤون حياتهم، حينها لن يكون بإمكان اي كان أن يؤثر، سلباً، في مواقفهم تجاه العملية السياسية لإعادة بناء مؤسسات الدولة على نحو ديمقراطي، مستغلاً ضبابية الظرف الراهن.

ميسورو الحال استأجروا بيوتاً لهم في بغداد.. والأغلبية ظلت بلا مأوى!

اغتراب أهالي الفلوجة.. متى ينتهي؟

احمد الاخرس

تصوير: سمير هادي

"اتمنى ان ارجع الى مدينتي الان ،حتى لو كانت هنالك معارك ،لأن المأساة التي نعيشها في اماكننا هنا ، اسوأ بكثير مما واجهناه هناك" هذا ما قاله المواطن بدر الدين شكر محمود ،مدرس الرياضيات في ثانوية الرحمن ،التي تقع في حي الجولان.اما الشاب علاء غازي جاسم الجنابي فقال"انا لن اعود الى الفلوجة ،لان الامور لن تتحسن هناك ،وستعود المواجهات بين (المسلحين)والاميركان ،سأحاول الحصول على بعض المال ،واخرج جواز سفر لي ولزوجتي ،لاسافر الى اية دولة لاعيش فيها"

اما الارملة لميعة عباس علي،فقد كانت تحاول ان تعرف ماذا يوزع جامع النصر الذي يقع في مدينة (الحصوة) هذا اليوم،على نازحي اهل الفلوجة،لعلها تذهب بأي شيء يمكن ان ينفع اولادها الثلاثة ، الذين يعيشون معها في غرفة صغيرة في قرية زوبع في خان ضاري،بشكل طارئ.

مأساتنا بدأت بدخول المسلحين العرب

كان يقف وحده منعزلاً عن الجميع، برغم برودة جو ذلك اليوم ،يحاول ان يعرف ما سوف يوزعه امام الجامع عليهم.كان شابا وسيما ،وطويل القامة، اشاروا اليه قائلين انه فقد عائلته بفعل قصف صاروخي في المعركة الاخيرة للفلوجة.

اقتربت منه، احاول ان اتعرف الى قصته،سألته ما الذي حدث في الفلوجة؟ ولماذا هي بالذات؟ قال لي وتعابير الحزن تغطي وجهه: ان مشكلاتنا بدأت بعد ان احرقت جثث الجنود الاميركان الثلاثة،ودخول المسلحين العرب، الذين وصل الامر بهم الى انهم اخذوا يمنعون المرأة من ان تخرج الى الشارع من دون ان تضع النقاب على وجهها، ان مأساتنا بدأت مع دخول اولئك العرب، الذين خانوا اهل الفلوجة، فبعضهم صعد الى الدبابات الاميركية عندما دخلت المدينة! وتركوا اهالي الفلوجة وحدهم.

كان الشعور بالغربة طاغياً على صوت الشاب الذي لجأ الى مدينة الحصوة هو وزوجته منذ شهر ونصف الشهر، يعيش في منزل صغير يحتوي على بعض الحاجيات البسيطة قال لي: ان كل ماتشاهده هنا ليس ملكي،بل مما تبرع به الناس لي. كما ان هذا البيت قد سمح لي صاحبه ان اسكن فيه وحين عرفت ان اسمه علاء الجنابي،قلت له هل عبدالله الجنابي من اقربائك ابتسم وهو ينفي ذلك.

قتلت عائلتي!

وأضاف: انا احب مدينتي، واكره عمليات العنف ولااحترم من يقوم بها، لقد تركت الفلوجة قبل شهر ونصف الشهر بعد ان كنت اعيش في منزل مؤجر بعيدا عن عائلتي ،التي تسكن في حي الشهداء، ثم سمعت ان منزلنا هناك قصف بصاروخ طائرة اميركية وقتلت عائلتي ،امي وابي واخي ، كان ابي يعمل سائقا وهو رجل كبير في السن اما اخي فهو لم يتجاوز السابعة عشرة من العمر،وعندما سمعت بذلك اردت ان اذهب لرؤيتهم فمنعني المسلحون من الوصول اليهم ، والى هذه اللحظة لا استطيع تجاوز تلك المحنة،سألته محاولا ان اغير مجرى الحديث، عن مصدر رزقه الان ،فأراني كيس رز قائلا: اننا نأكل من هذا الرز ويساعدنا جيراننا هنا على اعطائنا قليلاً من اللبن كل يوم انهم اناس طيبون،وهكذا الى ان اجمع بعض المال لاخرج جوازا واسافر انا وزوجتي لاعمل في اية دولة لانني لااظن ان الامور سوف تتحسن.

نساء

اظهر لي شيخ جامع النصر صلاح علي حمادي قائمة تضم اسماء اربعمئة واربع وستين أسرة من الاهالي الذين نزحوا من مدينة الفلوجة،وقال ان ذلك هو كل مايستطيع ان يقدمه الى الاهالي من معونات يتسلمها عن طريق جمعية علماء المسلمين ،بطانية واحدة لكل أسرة وبعض الملابس القديمة او مبلغا بسيطا من المال .

برغم ان الجو كان شديد البرودة،وقد تلبدت السماء بالغيوم،كان هنالك بعض النسوة قد جلسن قرب باب غرفة الشيخ في زاوية من زوايا الجامع الذي يقع في مدينة الحصوة،وكان هنالك ملصق صغير كتب عليه كلمة(اغاثة)،سألتني احدى النسوة ما اذا كنت قادما من جهة للمساعدات،ولما اجبتها بالنفي ،اشاحت بوجهها عني.كانت تتحدث الى امرأة مجاورة لها،وكانت تقول إنها كانت تسكن في حي نزال وانها قد فقدت ولديها في المعركة مع الاميركان.وكانت هنالك امرأة عجوز،حمراء البشرة وقد تساقط بعض اسنانها، وعندما رأت مساعد الشيخ قرأت له قصيدة في مدح الرسول، فما كان من ذاك الا ان اعطاها بطانية.وهي تتحدث (بقناعة) ان الاميركان عندما كانوا يحفرون خنادق لهم ،كانت تخرج لهم عناكب بحجم السيارة فيهربون منها ،وان هنالك رجالا يخرجون في الظلام ليقاتلوا الجنود الامريكيين على ظهور الخيل!!

اقتربت مني امرأة اصغر منهن سنا،وبعد ان عرفت نفسي لها،قالت ان اسمها لميعة عباس علي، وهي مطلقة،وان لديها ثلاثة اولاد ،اكبرهم فتاة في الثانية عشرة من عمرها ،تركتها مع اخويها الاصغرين،وهذه المرأة لامعيل لها، وهي تعيش على ما يمنحه الاقرباء او المحسنون،ولاتعرف متى تعود الى الفلوجة.

شاب قتلت عائلته: مأساتنا بدأت مع دخول المسلحين العرب

الهروب من المدينة

لم يكن خروج بعضهم سهلا من الفلوجة، لان الكثير منهم كان يظن ان المفاوضات بين الحكومة واهل الفلوجة لم تنته ،نعم لقد خرج قسم كبير منهم قبل الهجوم ولكن مع ذلك بقي عدد كبير من الأسر لايعرف الى اين يتجه.

قال احد المواطنين، رفض ان يذكر اسمه: نحن من سكنة حي الشهداء وقد حوصرنا هناك، وفي يوم ١١ تشرين الثاني عندما بدأ الهجوم ،اغلقت القوات الاميركية الشوارع الداخلية والخارجية، فلم يكن امامنا الا نهر الفرات الذي حاولنا ان نعبره لانه كان الملاذ الوحيد آنذاك.

وفي الليل حاولت عوائل عديدة آنذاك ان تعبر النهر برغم القصف الشديد،فكنا نمشي بين الجثث في الشوارع،كان وقتا عصيبا ونحن نحتمي بين الاشجار حتى نصل الى حافة النهر،حيث كان هنالك بعض الزوارق لتنقلهم الى الجهة الاخرى من الفرات وبعيدا عن القصف الاميركي ،كان الاطفال يبكون من الخوف والنساء تصرخ .كما ان بعضهم حاول ان يعبر سباحة.

استطاع ميسورو الحال ان يؤجروا بيوتا لهم في بغداد ،وسكن بعضهم مع اقاربه ، اما اولئك الذين لجأوا الى مدارس ومجمعات فمنهم من سكن في منطقة عامرية الفلوجة او مجمع السي سي في الحبانية او الصقلاوية فهم يعانون مصاعب عديدة في اغلب الاحيان ،لاسيما ان شتاء هذا العام يبدو اشد برودة، اما طلاب المدارس في جميع المراحل فيعانون من صعوبات عديدة فليس من السهولة عليهم ان يتأقلموا مع اوضاعهم تلك.

قصة اخرى

تحدث مدرس مادة الرياضيات في ثانوية الرحمن، وهو من (مواليد ١٩٥٧) المدرسة التي تقع في حي الجولان قائلا"ان معاناتنا شديدة ونحن نعيش حاليا في اماكن لاتصلح للبشر،فلاماء ولا كهرباء ولاحصة غذائية.كما اننا لانعرف وكلاءنا (الغذائيين)،لان اهل الفلوجة قد تفرقوا في كل مكان،ان كل ماحصلنا عليه من المساعدات هو ثلاث حاويات ماء لكل أسرة.اناشدكم الله هل هذا كل ما تحتاج اليه أسرة،نحن نعيش حاليا في مناطق قريبة من الفلوجة، فهنالك من يسكن في خان ضاري او الحصوة او (ابوغريب)، ان هذه المدينة ليس فيها مستوصف طبي ،فكيف تستقبل اناساً اخرين، ثم كيف الحال بأنسان قد ترك ملابسه واغطيته وخرج بثوبه الصيفي.

اننا لم نكن نعلم بتوقيت الهجوم ،الذي حدث فجأة، كنا نسمع بان المفاوضات مستمرة بين اهالي الفلوجة والحكومة،وكنا نتأمل خيرا،فتحملنا قصف الطائرات والمدافع،الذي كان مستمرا حتى قبل الهجوم،لاننا كنا نعرف مآسي ترك بيوتنا الى مناطق اخرى،ثم بعد ان اصبح الوضع لايطاق هناك ،هربنا لننجو بجلودنا،انا اقول لك هذه هي الحقيقة!

مواطنون من الفلوجة

عادل خلف الحلبوسي، وهو من مواليد ١٩٦٨،كان يعمل ضمن لواء الفلوجة وهو من دون راتب منذ اربعة اشهر،يسكن حاليا مع احد اقاربه، جاء هنا ليسأل عن مصير بيت عمه ،لم يكن يعلم عنهم شيئا، وقال لقد نهبت بيوتنا هناك، هل هي حواسم جديدة؟،وعندما سألته: كيف عرفت ذلك؟ قال لقد سمعت من فلان، وذكر الجنود الاميركان قد قلعوا العين اليسرى لابن خالته بعد ما اصابوه. اما خالد الراوي الذي كان يملك محلا في الفلوجة فقال بحماسة شديدة: ان ضرب الفلوجة هو امر مبيت قبل عشرات السنين!!لانهم يريدون تدمير الفلوجة قلعة الاسلام،والذي كان بتخطيط يهودي واميركي! لااعرف كيف يمكن ان نعود الى مدينتنا بعد ان تخرب كل شيء؟

على باب جمعية الهلال الاحمر

تجمهر عدد من الناس على ابواب جمعية الهلال الاحمرالعراقية في بغداد، دخلت بينهم، كان بعض منهم يخاف ان يصرح باسمه، وبعد تردد،قال المواطن نافع عبدالله،مدير مدرسة،وهو يعيش حاليا في بيت اجره في بغداد،طالبه صاحب الدار بعد أيام بان يغادر،قال "ان مشكلتنا الاساسية الان اننا نريد ان نعود الى منازلنا ،نحن نريد ان نرجع مهما كانت الظروف،وذلك لصعوبة ما نلاقيه، من اوضاع مزرية وظروف مادية صعبة،تشكل ضغطا كبيراعلى احوالنا.

واضاف: اما اولادنا الذين تركوا المدارس فحدث ولاحرج،نعم قد ساعدنا بعض المواطنين الذين يسكنون بالقرب منا على تهيئة المجمعات السكنية التي تفرقنا فيها بعد الهجوم الاميركي .لقد ساعدنا بعض المديرين مشكورين وقبلوا تلاميذنا في مدارسهم" . واقترح تسهيل الحصول على البطاقة الغذائية خاصة ان قسما من المواطنين لم يستطع ان يجلب بطاقته الغذائية معه، وهو يرجو ان تسهل وزارة التجارة اجراءات منحهم بطاقات غذائية جديدة في السجلات او جلب شاهدين يثبتان ان المواطن الذي قد جاء يطلب بطاقة غذائية جديدة هو

حين عبرت الأسر نهر الفرات تحت القصف!

حقا من ابناء الفلوجة.

وقد اشتكى قسم من المواطنين ان اولادهم في المدارس يعانون ظروفاً نفسية صعبة لان الاولاد الاخرين يقولون عنهم بأنهم ارهابيون!!

ويشتكون ضعف تعاون بعض الجوامع التي لم يحصلوا فيها الا على مساعدات قليلة،وهم يرجون تأكيد مسألة منح مبلغ مئة وخمسين الف دينار لكل أسرة عن طريق وزارة التجارة..

وجدت عند احد المواطنين نسخة عن خريطة مدينة الفلوجة باللغة الانكليزية قسمت فيها الى ثماني عشرة منطقة ،وقال انهم بدأوا يعودون على شكل مراحل والمرحلة الاولى كانت عودة ٢٠٠٠ رب أسرة من حي الاندلس.

يقول السيد عبد الحميد سليم ،الذي يعمل موظفا في القسم الاعلامي في جمعية الهلال الاحمر العراقية.عندما سألته عن سبب تجمع بعض من مواطني الفلوجة،قال نحن نوزع بعض البطانيات عليهم عن طريق،لجنة خاصة تتسلم قوائم مثبتة بها اسماء المواطنين الذين تأكد لنا انهم فعلا من سكنة الفلوجة .

يوم الخميس بداية العودة

تجمع طابور طويل من السيارات في اليوم الذي كان البداية لعودة المواطنين ،وبعد ان يتم تفتيشها من قبل افراد الحرس الوطني ،ينزل اصحاب الأسر حتى يقدموا مايثبت انهم من سكان الفلوجة ،وتقوم بهذه المهمة القوات الاميركية ،وقد سمحت لنحو تسعمائة رب أسرة بالوصول الى منازلهم بعد ان تقوم بأخذ صور لهم ومنعت سبعة عشر اخرين من الدخول لانهم لم يقدموا اوراقا تثبت انهم من سكان الفلوجة ،وكانت البداية هذه لسكان حي الاندلس واذا وجد احدهم ان داره قد تهدم يثبت اسمه لتقوم الحكومة بعد ذلك بتعويضه بمبلغ لايقل عن ٢٥٠٠ دولار اميركي.وبرغم حدوث اشتباكات في مناطق اخرى من الفلوجة استمر الاهالي بالوصول اليها .

وقد دعا بعض المصادر الحكومية اهالي الفلوجة العائدين الى رفض مظاهر التسلح في الاسواق والاماكن العامة ،حيث تقرر منع حمل أي نوع من الاسلحة من اجل استتباب الامن.ان عودة الاهالي ستتم على مراحل وحسب جدول زمني.

وبرغم وجود المخاطر الكثيرة، إذ ان بعض الجهات تريد ان تستغل الموقف لصالحها لتعمق من مأساتهم، فاؤلئك لايرغبون من ان يعود الاهالي الى مناطقهم بل انهم يخوفونهم من العودة،وهي مجموعات تطلق على نفسها اسم (مجاهدو الفلوجة)،وجاء في منشورهم الذي حمل توقيعهم"يمنع منعا باتا الدخول الى المدينة" وقد سمعنا بحدوث اشتباكات عديدة بين مقاتلين والقوات الاميركية هناك ،وحدوث قصف بالطائرات في بعض المناطق.

توجيهات اخرى

وقد نشر بعض الصحف عن مصادر حكومية ان هناك مساعدات مالية فورية مقدارها ١٥٠ الف دينار عراقي تمنح لاهالي الفلوجة عند عودتهم ولكن لم يتسلمها أحد إلى الآن ولا يدري المواطنون متى يوزع هذا المبلغ بينهم وهم أحوج ما يكون الآن الى أي مبلغ قد يسددون به بعضاً مما تراكم عليهم من ديون، كما ان هنالك مساعدات اخرى بمبلغ ٥٠٠ دولار اميركي الى كل أسرة تعود الى منزلها في الفلوجة ،اما بخصوص تعويضات اصحاب المنازل المتضررة فان الحد الادنى يبلغ ٢٥٠٠ دولار اميركي مع توفير جميع المستلزمات الضرورية للأسر من وسائل معيشية ومواد تموينية ووسائل تدفئة.

السؤال الاخير

يجب ان لايقف الامر عند حدود توفير المستلزمات المعيشية فقط او التعويضات، برغم ضروريتها، ولكن يجب كذلك مداواة جراح المواطنين ومآسيهم وتعريفهم ببرامج الاحزاب التي شاركت بالانتخابات والتي يقبل بها الناس هناك ، حتى لايأتي من جديد من يحاول عزل اهلها ويثير الاضطراب من جديد والذي لن تكون نهايته الا خراب جديد.